مسابقة الفلسفة للأعوام الستة القومية : (٤)

(١) النفس عند ابن سينا (٤)

للأستاذ كمال دســـوقي

لا يفوتني قبل أن أتقدم بكم إلى موضوعنا اليوم أن أنبهكم إلى هذه الصلة الوثيقة بين العقل بقسميه النظري والعملي عند ابن سينا وبين تصنيفه للعلوم العقلية . ولما كنت أخشى ألا يتيسر لكم الوقوف على هذا التصنيف في كتابه الشفاء ، أو في مقدمة منطق المشرقيين أو في رسالته في أقسام العلوم العقلية ، فإني أجمل لكم الحديث عن لوحة تقسيمه للعلوم هذه التي ينبغي أن تقفوا عليها وأن تربطوها بأقسام العقل النظري والعملي التي حدثتكم عنها في المقال السابق .

ذلكم أن العلوم تنقسم عند ابن سينا كذلك إلى نظرية وعملية . فالنظري منها ما كانت غايته حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان ، كالله والكواكب ، والأرض ، والأعداد ... الخ اعتقادا غايته الوصول إلى الحق Truth والبحث عن الحقيقة Vérité . أما العملي فيتجاوز حصول الاعتقاد إلى حصول رأي عملي فيما هو من تدبير الإنسان وكسبه ؛ حصولا من شأنه أن يؤدي بنا إلى الخير Goodness أو Bien ، فهنا تفرقة للأشياء من حيث وجودها بإرادتنا أو بغير إرادتنا وكيفية علمنا بها على هذا الأساس .

والعلوم النظرية عنده ثلاثة : العلم الأدنى (الطبيعيات) ؛ وموضوعه هذه الأمور التي حدودها ووجودها يتعلقان بالمادة والحركة ، كأجسام الأفلاك التي تحدثنا عنها ، وللعناصر الأربعة وكل ما هو جسمي على الإطلاق . مما يتغير عليه الحركة والسكون والكون والفساد والتغير والاستحالة . ولهذا العلم مبادئ أصلية نظرية هي التي ذكرناها حين كنا نتحدث عن موضوع النفس من مذهب ابن سينا ، وتطبيقات فرعية كالطب والتنجيم والفراسة والكيمياء مما يقوم على المبادئ الأصلية السابقة . ثم العلم الأوسط (الرياضيات) وموضوعه أمور يتعلق وجودها بالمادة وإن تجردت حدودها عنها ، كعلم العدد (الحساب) والهندسة (علم السطوح والأشكال والمقادير) وعلم الهيئة (الأفلاك وأوضاعها وحركاتها) والموسيقى (علم النغم والإيقاع واللحن والاتفاق -) هذه مبادئه الأصلية ، وله كذلك فروع تطبيقية كالمساحة والحيل (الميكانيكا) وعلم المناظر والمرايا وجر الأثقال ونقل المياه ... الخ . وأخيراً العلم الأعلى (الإلهيات) التي ليست أمورها ذات تعلق بمادة أو حركة والتي تبحث في ذات الواحد الحق وصفاته من هوية Identité ووحدة وعلية Causalité ... الخ . وله هو الآخر أصول وفروع لا داعي للإحاطة بها .

أما العلوم العملية فهي التي موضوعها الأفعال التي تشترك مع غيرنا أفراداً وجماعات — وهذه بطبيعة الحال أمور من بعض فعلنا وإرادتنا . فإن كانت لتدبير يختص بشخص واحد مما يحقق له السعادة فهي علم الأخلاق ، وإن كانت تبحث في تدبير الإنسان لأسرته وزوجه وولده ومملوكه (خادمه) مما يحقق سعادتهم أيضاً فذلك تدبير المنزل ، وإن كانت هذه الأمور تتناول شئون الرياسات والسياسات والمجتمعات والمدن الفاضلة فذلك هو علم السياسة ... هذه هي العلوم العملية عند ابن سينا ، وهذا تصنيفه للعلوم كلها وتصنيف الفارابي قبله . والمنطق هنا يجعله ابن سينا مقدمة وآلة Organon للعلوم فحسب ، وإن كان في تقسيم كتبه فعلاً يجعله القسم الأول منها ، ثم يتبعه بالطبيعيات فالإلهيات — على نحو ما بينت لكم من قبل — ونكتفي بهذا التقسيم لابن سينا؟ لأنه أرستطالي من جهة ، ولأنه أدنى إلى موضوعنا في تقسيم النفس إلى نظرية وعملية ، من جهة أخرى . وإلا فإن له تقسيما آخر مختلفاً بعض التي ء (في مقدمة منطق المشرقيين) لا داعي لذكره .

ويهمني — ويهم ابن سينا كذلك — أن تميزوا بين أنواع الإدراك المختلفة التي تحصلها كل ملكة من ملكات العقل ؛ فإن له هنا نظرية في المعرفة جديرة بالاعتبار ، ونظراً في طبيعة الإدراك من حيث علاقته بالشيء المدرك . فإذا كان الإدراك هو أخذ صورة المدرك مجردة عن المادة أيّ نحو من التجريد ؟ فإن الحس يدرك الأشياء مع لواصقها المادية ، كالتكثر ، والانقسام ، والكم (العدد) والكيف (الخصائص والصفات) والأين (المكان) والوضع ... الخ . والخيال يجرد صورة الشيء المدرك

من المادة تجريداً تاماً تقريباً ، يستوى معه وجود الأصل أو عدمه ولكنه لا يجردها من العلائق ، بل تظل ملابسة لها فى الخيال . أما الوهم فإنه يدرك المعانى التى قد توجد فى مادة ولكنها ليست فى ذاتها مادية كالخير والشر والملائم وغير الملائم ، إدراكا جزئياً لا يبرأ من لواحق المادة والحس والخيال . وأما العقل — أو الحاكم العقلى كما يسميه — فيدرك الصور مجردة عن المادة من كل وجه وعن علائقها ولواحقها من أى نوع .

ولا يخفى عليكم أن ابن سينا يمهد للدخول فى إثبات وجود النفس بوصفها جوهراً مفارقاً للبدن ، فيقيم لكم التناقض واضحاً جلياً من مادة الشىء المدرَك — حتى فى غيبته عن الحس — وجوهرية العقل المدرِك ؛ بين تعلق هذا الأول بالمادة والمكان والجهة ، وتجرد ذلك الثانى منها . يريد أن يخلص من ذلك إلى أنه لا شىء مما يدرك الجزئيات المادية إلا وهو مادى ، وأن لا شىء أيضاً مما يدرك الكليات العقلية إلا وهو مجرد ، وأن يدلل على أن الإدراك الحسى والخيالى والوهمى — نظراً لتعقلها جميعاً بصور جزئية خيالية على نحو ما أسلف القول — فهى إنما تقع بالآلة الجسمانية التى ليست مجردة من المادة ولا مفارقة للوضع الجسمى .

أما الجوهر الذى هو محل المعقولات المجردة فمجرد كذلك من المادية والجسمية — فهو ليس جسما ولا حالا فى جسم بوصفه صورة أو قوة له . وحجته هنا تقوم على إنكار ما أثبته فى الفصل السابق للقوى الإدراكية الجزئية على القوى المدركة العقلية — أعنى الانقسام المادى فى القوى الحاملة أو القابلة للادراك ، نتيجة لانقسام المدرَك ذاته . فلما كانت المدركات الحسية منقسمة ومتجزئة بدليل أنك تدرك الشىء الواحد — كالإنسان مثلا — متفاوتاً فى الكبر أو الصغر ، وأن هذا التفاوت لا بد أن يكون من جانب المدرِك أو المدرَك ، فقد كانت القوى المدراكة الجزئية منقسمة كذلك . وإذن فهى فى مكان ووضع وجهة ، وبالتالى فهى مادية كمدركاتها ، متصلة بها غير مفارقة .

وطريقة ابن سينا فى إثبات تجرد جوهر العقل من المادة أن يبرهن على أن هذا الجسم الذى سيحل فيه المدرَك العقلى إن كان جسما — فهو إما غير منقسم (جزء لا يتجزأ كالذرة — باعتبار ما مضى — وكالجوهر الفرد أو النقطة الرياضية) أو مقدار منقسم فعلاً . فإن كان الأول فهو غير معقول ؛ لأن النقطة وهى منفردة لا تقبل شيئاً من الأشياء وإلا أصبحت ذات وجهات (حجم) ولم تعد نقطة ، ولأنها وهى طرف من خط هى نهايته فلا بد أن يكون لجزء من هذا الخط نصيب مما تقبله ؛ وحينئذ يكون للنقطة وجهان أحدهما غير الآخر ومخالف له . فالوجه الذى هو نهاية الخط غير الوجه اللاصق له من الناحية الأخرى . وإلا كانت النقطة منفصلة عن الخط ولم تكن هى نهايته ، وهنا نخلف مع ما افترضه من قبل ، ومع إبطاله فى مواضع أخرى للجوهر الفرد نثبت إذن فساد القول بأن جوهر العقل شىء غير منقسم .

ويتضح كذلك فساد أن يكون شيئاً منقسما قسماً لانقسام الصورة العقلية التى يدركها مثلا . إذ لو كانت الصورة العقلية منقسمة لم يأت من مجموعها شبيه بها إلا بالزيادة والكم والمقدار مما سبق أن قلنا إنه خاص بالصور الخيالية — كما أن أحد أجزائها لن يدل على معنى الكل وإلا كان هو الكل ولم يكن ثمة انقسام . هذا إذا كان القسمان متشابهين ؛ أما إذا كانا غير متشابهين فإنه يترتب على ذلك أن حد الصورة العقلية (الذى هو الجنس والفصل كما رسم فى بابى الكليات الخمس والتعريف) يكون منقسما . وهو عند ابن سينا محال لأنه يبين هنا — وفى قسم المنطق من قبل — أن الأجناس والفصول متناهية وغير منقسمة ، كذلك لا تنقسم الصورة العقلية إلى جنس من ناحية وفصل من ناحية أخرى ؛ كل على حدة (بعد أن ثبت فساد انقسام كل على نفسه) وإلا كان نصف الصورة العقلية يحتوى نصف الجنس ونصف الفصل ، وفى هذا خلف مع ما سبق إثباته ؛ أو إذن لحل الجنس والفصل كل موضع الآخر وهو محال . فالصورة العقلية هى إذن مبادئ بسيطة قابلة لتركيب معقولات أكبر ، دون أن يكون لها أجناس أو فصول ، ودون أن تنقسم فى الكم إلى أجزاء متشابهة أو غير متشابهة ؛ وبالتالى فهى لا تحل فى مقدار ، والقابل لهذه المعقولات المجردة فينا هو جوهر غير جسمى أو مادى .

ولابن سينا هنا حجة أخرى على تجرد الجوهر العقل من المادة . مؤداها أن تجريد الصورة العقلية عن المكان والوضع والكم والأين وسائر المقولات فهو باعتبار وجودها الذهنى وتصورها العقلى لا فى وجودها الواقعى الخارجى ، ومثل هذه

الصورة العقلية الفارقة لمادتها لا يمكن لذلك أن تكون في جسم ، وإلا ولو أن هذه الصورة العقلية المجردة قد انطبقت في جسم ذي جهات وأقسام لنتج محال وخلف لما فرضناه في البدء . وخلاصة القول أن محل المعقولات والجوهر القابل للصورة المجردة هو مثلها مجرد — ولا يمكن أن يكون جسما أو في جسم محال . على عكس الصور المنطبعة في المادة والتي هي أشباح لأمور جزئية منقسمة لكل قسم منها نسبة بالقوة أو بالفعل لجزء من الشيء المادي أو لكله .

وإذ برهن ابن سينا بهذين الدليلين على تجرد الجوهر العقل من المادة والجسمية انتقل إلى النتيجة المنطقية التي تلزم هذا البرهان بالضرورة ، وهي أن تعقل القوى العقلية المذكورة ليس يحدث بالآلة الجسمية . وله في ذلك حجج ثلاث : أولاها أنه لو كان تعقُّل هذه الصور بآلة جسدية لم تستطع أن تعقل ذاتها وتشعر أنها تعقل (كالحس مثلاً أو الخيال والوهم التي تحس أو تتخيل وتتوهم أشياء خارجة عنها — دون أن تشعر بفاعليتها هذه) — أما العقل — فانه يعقل الصور الكلية . ويعقل أنه يعقلها — مما يدل على أنه ليس بينه وبين ذاته آلة أخرى وسيطة وبالتالي أنه يعقل بذاته — وحجة أخرى هي أن الحواس وما من شأنه إدراك الصورة الحسية الجزئية يوهنها دوام العمل ، ويصيبها بالعجز والكلال (وأمثلتها هنا كثيرة وواضحة) بينما القوة العقلية لا يزيدها التعقل إلا جلاء وجدة ، وصفاء وقوة ودربة ؛ ما لم يُفسد عليها الخيال والحس هذه الملكة . والحجة الثالثة على أن القوة العقلية ليست جسمية أنها ليست خاضعة للضعف أو الشيخوخة شأن سائر القوى البدنية في سن معينة . بل لا تزال قوية فتية بعد هذه السن بكثير ما لم يطرأ عليها طارئ مرضي أو نحوه . فان صح أن النفس يتعطل فعلها عند مرض البدن كما يُتوهم — أو عند الشيخوخة ، فما ذلك إلا لأن النفس — كما بينا من قبل — لما فعل بالقياس إلى البدن (إدارته وسياسته) وفعل بالقياس لذاتها (التعقل والتفكير) فبأيهما اشتغلت انصرفت عن الآخر لا تجمع بين الاثنين مطلقاً ، بل نسبياً ؛ كما لا يتم فعلها إلا باليدن فهو عالة على النفس ، وشر لا بد منه .

وآية احتياج هذه القوة العقلية إلى معونة القوى الحسية الحيوانية أنه لا يتم لها معرفة ولا تعقل إلا إذا أمدتها هذه البدنية بمادة المعرفة للعقل (الخام Matiére Brute) ، فعندئذ تبدأ النفس عملها على أنحاء أربعة :

(١) التجريد والتعميم وانتزاع الكلي من الجزئيات ، واستخلاص التصور الذهني Concept .

(٢) ومن هذه التصورات الذهنية المجردة تقوم أحكام وقضايا سالبة وموجبة هي التي نسميها في المنطق التصديقات Judgé—Ments — التصورات تقوم في الحس المشترك والتصديقات في الخيال والوهم .

(٣) ثم إن المقدمات الكلية التي تستقيم عليها الأقيسة والبراهين العقلية لا بد أن تكون من واقع الحياة والتجربة ، وأن يكون سبيلها الملاحظة والمشاهدة والتعميم الذي يؤدي إليه الاستقراء induction والحواس هي وسيلة الاستقراء الأولى .

(٤) وكذلك الخبرة والسلمات والبديهيات التي نحصلها ونصدق بها لشيوعها وتواترها وجلاء الحق فيها ؛ أي نحصلها بالسماع كما يقول العرب ، أو Par oui -ditre كما يقول الفرنسيون ؛ هذه إنما نكتسبها بالسمع أو التعليم والتلقين أو التقليد tradition وقد لا نصدق بها بعد .

وبهذا يكون ابن سينا قد أقام الدليل واضحاً قوياً على أن النفس الناطقة ليست في ذاتها جسما ، وأنها لا تحل في جسم ، لأن صورها المعقولة التي هي محلها ليست جسمية . وثبت إذن أن النفس الإنسانية جوهر روحاني مفارق Séparée .

كمال رسوقي

رفائيـــل

للأستاذ أحمد حسن الزيات

إحدى روائع القصص العالمي الواقعي لشاعر فرنسا الخالد « لامرتين » .

قص فيها بأسلوبه الشجي تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب ... وهي « كالام فرتر » في دلة الترجمة وقوة الأسلوب . طبعت أربع مرات وثمنها ٤ قروش عدا أجرة البريد